الاستعطاف في الأدب الأندلسي: ابن زيدون أنموذجا:

أ. مهاجر جمال
جامعة تلمسان

الحرية أثمن شيء في الحياة، فقد جُبِلَ الإنسان على التّرحال والتنقّل في أرض الله الواسعة لا تحدّه حدود ولا تضيق به بلاد، ولكن كثيرا ما يقع خلف القضبان مسلوب الحرية، فاقد الإرادة.

إنّ هذه اللّحظات أشدّ وطأة وجزعا في حياة الإنسان، وهي اللّحظات الّتي يصبح فيها الإنسان خائر العزيمة، مجهول المصير، فيعيش الاحتقار والذلّ، لا يسمح له بالخروج أو يقضى عليه فيموت.

"إنّ كلّ تأليف أدبي هو تجربة مارسها المؤلف، في مكان وزمان معينين، وإنّ هذه التّجربة قد ملكت حسّه وحملته على القول، وكلّما زادت هذه التّجربة مأساة وألما، كلّما رأينا هذا التأليف قادرا على استثارة مشاعرنا ومشاعر الآخرين، ومشاركة المؤلّف تلك الآلام"[1].

فالسّجن مكان موحش ضيّق يؤذي النّفس ويجعل للحياة لونا قاتما يناقض لون الحرية، أمّا مكانه فتحت الأرض أو الأبراج العالية المنقطعة، رغبةً في قطع السّجين عن العالم، وأمّا شكله فمنيع ووثيق الإغلاق على نزلائه.

وفي تجربة الشّاعر الأندلسي وصف لما يعانيه السّجناء والمعتقلون والأسرى من ضيق وغربة مكانية فرضتها هذه الأماكن المقفرة الخالية من كلّ خير ورحمة.

إنّ من يتعرّض لعملية السّجن أو الأسر يلقى مرارة حجز الحرية ويتعرّض لمختلف أنواع العذاب النّفسي والجسدي وغيره، فيتفاعل ذلك في نفسه، وينعكس على أدبه، فيقدّم لنا صورة واضحة لواقع عايشه ولتجربة مارسها.

وجلّ الأدباء الأندلسيين الذين سجنوا، كانوا ممن عرف حياة هنيئة أو على الأقل هادئة، غير أنّ الأحوال تغيّرت فجُعِلوا خلف القضبان، ليترك هذا التحوّل المفاجئ أثره في نفس الأديب، فتراه يتحدّث عن نكبته محاولا بذلك التّنفيس عن عواطفه، متّخذا لذلك كل الأسباب والطرق.

وقد طرق الأندلسيون موضوعات مختلفة، توحي في معظمها بالتحسّر من الحال التي يعيشها السّجين، فمنهم من يأمل في غد جديد يحمل عفو الملك أو الحاكم بعد رسائل الاستعطاف والشّكوى، ومنهم من يئس من هذه الخطابات فاكتفى برثاء حاله وأوضاعه مسلّما أمره إلى الله تعالى، طامعا في مغفرته ورضوانه؛ فأدب السّجون تعزية للنّفس عن المصاب الذي حلّ بها، وموضوعاته متّعددة دارت حول تلك التّجربة الرّهيبة الّتي مرّوا بها، وما تركته في نفوسهم من آثار، كانت سلبية في الغالب.

وقد تطرّق الشعراء إلى «وصف السّجن ووصف القيد، والحديث عن السّجناء وتهديد الخصوم، ومواقف الأمل واليأس الّتي تقلّبوا فيها وخلاصة تجربتهم أو الحكمة الّتي خرجوا بها من هذه التّجربة »[2]، ومعظم أشعارهم كانت في الاستعطاف والشّكوى ووصف المأساة الّتي يعانونها والشّوق للأهل والأحبّة وبعض الأماكن. **الاستعطاف** :

الاستعطاف غرض قديم من أغراض الشّعر العربي، "ويقال له أحيانا الاعتذار، والمتتبّع لتاريخ هذا الفنّ يرى أنّه لم يخل عصر من عصور الأدب العربي من شاعر أو أكثر نظموا الشّعر استعطافا أو اعتذارا عمّا تورّطوا فيه من إساءة كالهجاء مثلا أو عمّا نُسب إليهم زورا أو بهتانا بحقّ ملك أو ذي سلطان»[3].

وقصيدة الاستعطاف تدور معانيها عادة على ترفّق الشّاعر في الاحتجاج على براءته ممّا نُسب إليه، واستمالة قلب المستعطَف أو المعتذَر إليه، والتّذكير بسالف ولائه أو خدماته، ووصف ما يعانيه في سجنه من ضروب الحرمان، تتفاوت

خلالها أساليب الشّعراء من حيث قوة التّأثير في المستعطَف، فمنهم من تُسعفه أبياته وكلماته وقوّة بيانه ونصاعة حجّته في الإقناع ببراءته، فتُغفر زلّته إن كان طليقا، أو يُعفى عنه ويُطلق سراحه إن كان سجينا، ومنهم من يَقْصُرُ بيانه في تبرئته فيظلّ قابعا في سجنه، أو مُبعدا مغضوبا عليه.

ويظهر أنّ الكثير من شعراء السّجون طرقوا هذا الموضوع، لأنّه كان يمثّل لديهم أمل الخلاص من السّجن، والانطلاق إلى عالم الحرية من جديد، فكانت جلّ أشعارهم تدور حول الاستعطاف والعتاب والاعتذار، في سياق استرحام الحاكم بأمرهم حتّى يعفوَ عنهم. وكانت أشعار الاستعطاف أحيانا تغلّفها مسحة من التذلّل والخضوع للحاكم مع الاعتراف بالذّنْب، لتكون أبلغ تأثيرا في سبيل غايته، أو قد يختلط هذا الاستعطاف بالمدح، و"المدح إذن هو القالب العام الذي تصبّ فيه المعاني الأخرى الّتي يتوسّط بها الكاتب لبلوغ أهدافه المنشودة، سواء كانت من قَبيل الاستعطاف أو الشّفاعة»[4].

وكثيرا ما يأخذ المدح مأخذه في نفس الحاكم فيعفو ويصفح، وقد يتوجّه الشّاعر أحيانا باستعطافه متوسّلا بشفيع يشفع له للوصول إلى مبتغاه.

ولاشكّ أنّ أوّل ما يتبادر للسّجين هو محاولة التخلّص من المحنة الّتي وجد نفسه فيها، وممّا فرضته الطّبيعة السياسية والاجتماعية على البشر، التقاؤهم ومعرفتهم بعض الأشخاص ذوي النّفوذ، فتجد المسجون يتودّد لهؤلاء الأصدقاء بغية كسب تعاطفهم، ودفعهم للتوسُّط بينه وبين الحاكم، ومنهم من خاطب الحاكم مباشرة لصلة أو قرابة بينهما أو بحكم الاشتغال بمنصب في البلاط أو إحدى الولايات.

والاستعطاف أحد فنون الشّعر العربي، ويعتبر لدى الشّعراء الذين تعرّضوا لتجربة السّجن من الموضوعات الّتي شغلت حيّزا كبيرا في أشعارهم، لأنّ أغلب هذه الأشعار توجّهت إلى الحكّام وذوي النّفوذ الذين تسبّبوا في سجن أولئك الشّعراء، والغرض من التوجّه إليهم بالأشعار نيل العفو والصّفح، وهذا الطّلب يلائمه الاستعطاف ويحقّق مبتغاه، و"إذا كان صحيحا أنّ الإنسان لا يستعطف إلاّ من يقدّر فيه أنّه يملك إمكانية العطف عليه، سواء كانت ذات طابع مادي أو معنوي ، فإننا ندرك حينئذ أنّ هؤلاء المستعطَفين والمتودَّد إليهم، لا يمكن أن يكونوا إلاّ من الفئات النّافذة في المجتمع، ذات الهيبة والسّلطان: من الأمراء والملوك أوّلا، ثمّ من وزرائهم ومن كان في مستواهم من الكبراء والأعيان"[5].

إذ يمكن أن تلين قلوبهم بالاستعطاف والتوسّل للوصول إلى الحرية، وكثيرون هم الشّعراء الذين كانت قصائدهم الاستعطافية سببا في إطلاق سراحهم.

والجدير بالذّكر أنّ شيوع الاستعطاف في شعر السّجن ، حجب بالمقابل الأشعار الّتي تعبّر عن الصّمود والثّبات على الموقف إلاّ إذا كانت القضية دينيّة، ممّا يؤكّد أنّ أسباب السَّجن لم تكن لتعبّر عن حركة سياسية أو اجتماعية منظّمة قائمة على الاختلاف المبدئي، بل كانت عبارة عن نزاعات ومطامع ومصالح فردية، "ممّا جعل الانكسار والاستسلام للسجّان أمرا شائعا لدى أغلب السّجناء"[6].

فلم يلاحَظ تمرُّد ظاهر أو خروج قوي على الحاكم، لأنّ هذه التّجربة تقضي في كثير من الأحيان على حديث النّفس بالتمرّد، وإن وُجد بعض من أخذتهم العزّة بأنفسهم و لم يتذلّلوا للسجّان، لكنّهم على الرّغم من ذلك لم يثوروا في وجهه ، على اعتبار أنّ السّجن يكسر شوكة السّجين، ويضعه في زاوية صعبة، ويكون من نقاط ضعفه، وفي الجهة المقابلة نقطة ذات أهمية لصالح سجّانه.

ومن **الشّعراء** الذين ذاقوا مرارة السّجن واستعطفوا الحكّام والوزراء وذوي الشّأن، ابن زيدون[1*] الذي ألقاه ابن جهور[2*] في السّجن، ومن أشعاره يمدح ويستعطف قوله:

بَوَّأَ اللهُ جَهْوَرًا شَرَفَ السُؤْدُدِ ... فِي السَّرْوِ* وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الجَمِيعُ لَهُ الأَمْـــرَ ... فَكَانَ الخُصُوصُ وَفْقَ العُمُومِ
قَلَّدَ الغَمْرُ* ذَا التَّجارِبِ فِيـــهِ ... وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ العَلِيمِ
أَيُّهَا ذَا الوَزِيرُ! هَا أَنَا أَشْكُـــو ... وَالعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ
مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ المَرْبِطَ ... فِي العِتْقِ مِنْهُ وَ التَّطْهِيـــــمِ
وَبَقَاءُ الحُسَامِ فِي الجَفْنِ يَثْنِـــي ... مِنْهُ ، بَعْدَ المَضَاءِ وَ التَّصْمِيمِ
بِأَبِي أَنْتَ ، إِنْ تَشَأْ ، تَكُ بَرْدًا ... وَسَلاَمًا كَنَارِ إِبْرَاهِيـــــم
وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ لِي الصَّعْـــبَ ... مَثَابِي إِلَى الهُمَامِ الزَّعِيـــــمِ[7]

فهو يُثني على شرف ابن جهور والمرتبة الرّفيعة الّتي تبوّأها، بعد أن استلم مقاليد الحكم ليكون الحاكم الجديد الذي اتّفق عليه الجميع.

وعلى الرّغم من إفراطه في التوسّل بغية التقرّب من ابن جهور وكسب شفاعته، فإن بعض الدّارسين لم يعيبوا عليه ما فعله واعتبروه ممّن لم يتذلّلوا بأشعارهم، كرأي رشا الخطيب حين تجزم: "بل هو في استعطافه يخاطب ابن جهور مخاطبة الندّ للندّ ويوازي نفسه به ولا يتذلّل إليه....ومع هذا كلّه فإنّ ابن زيدون لا ينتقص من مقدار نفسه بل نلمح نبرة التّهديد في قوله :"والعصا بدء قرعها للحليم. وإن كانت نبرة خافتة"[8]، وقال أيضا:

إِنْ طَالَ فِي السِّجنِ إِيدَاعِي فَلاَ عَجَبٌ ... قَدْ يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذّكرِ
وَإِنْ يُثَبِّطْ أَبَا الحَـــزْمِ الرِّضَى قَـــدَرٌ ... عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلاَ عَتْبٌ عَلَى القَدَرِ
ذُو الشِّيمَةِ الرّسْلِ إِنْ هِيجَتْ حَفِيظَتُهُ ... وَالجَانِبِ السَّهْـــلِ وَالمُسْتَعْتَبِ اليَسَرِ
مُذَلِّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمَهَا شَطَطًـــــا ... عَلَيْهِ وَهـــوَ العَزِيزُ النَّفْـــسِ وَالنَّفَـــرِ
أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مَغْنَى تَجَارِبِـــــــهِ ... وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ العَجْلَى عَنِ الفِكَرِ[9]

يريد الشّاعر أن يتناسى الفترة التي قضاها في السّجن، و بالمقابل يتودّد إلى ابن جهور حتّى يخلّصه ممّا هو فيه، مادحا سجّانه، ومبيّنا إذعانه لوليّ أمره، "ويلاحَظ في قصائد ابن زيدون الاستعطافية، أنّه يمزج الاستعطاف فيها بمدح الأمير أو معاتبته على نسيان سابق ولائه له، أو بالفخر بنفسه أحيانا»[10].

فهو يأمل العفو ويمدح بطريقة ضمنية، ويتوسّل لإطلاق سراحه، حيث مدحه أنّه صاحب خُلُق سمح وسهل الرّضى وسريع الصّفح والغفران.

ورجاه في آخر القصيدة أن يشفع له ويطلق سراحه فقال:

لَكَ الشّفَاعَةُ لاَ تُثْنَى أَعِنَّتُهَـــا ... دُونَ القَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ العُذْرِ
فَاشْفَعْ أَكُنْ مِثْلَ مَطْمُورٍ بِبَلْدَتِـــهِ ... جَذْلاَنَ بِالْوَطَنِ المَأْلُوفِ وَالوَطَرِ[11]

إنّ الشّاعر يدرك تمام الإدراك أن صاحب الفضل عليه هو سجّانه، لذلك لم يَتَوَانَ في استعطافه، "فالحاكم يملك الشّفاعة الّتي لا يقف في سبيلها أي عذر من الأعذار، وشفاعته ستجلب لابن زيدون الأمان فيكون مثل من يأتيه الخصب والنّماء في وطنه دون غربة عنه»[12].

و لم يكتف ابن زيدون في استعطافه بالقصائد الشّعرية بل حاول أكثر من مرّة وبكلّ ما أوتي من بيان الخلاصَ من محنته، فنجده يكتب رسالة* لابن جهور، يطلب فيها شفاعته و لم تخرج عن المعاني المطروقة في شعر الاستعطاف لديه، حيث نلمس من خلالها نفس شاعر مرهف الحسّ، يذوب حسرة لما يلقاه في سجنه من ألم وهوان، وما يشار إليه أنّ بدايتها لا تخرج عن المدح والثّناء والتودّد كقوله: «يا مولاي وسيّدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه، أبقاك الله ماضيَ حدّ العزم، واريَ زند الأمل، ثابت عهد النّعمة. إنْ سلبتني -أعزّك الله – لباس إنعامك، وعطّلتني من حلي إيناسك، وغضَضْتَ عنّي طرْف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصمّ ثنائي عليك...."[13].

يخاطب ابن زيدون ابن جهور في الشّأن الذي يزعجه، ويسدّ عليه آفاق الأمل، إنّه السّجن الذي يكابد فيه المحن، وله أسلوب في طرح قضيته، يتلخّص في الشكوى من عدم التفات الأمير إليه، وعدم الإسراع إلى فكّ قيوده، وأبعد من ذلك يوسّع للأمير باب العذر، ويهوّن من نتائج إهماله على الرّغم من الثّقل الذي يحمله الأسير المكبّل حيث يقول: «فلا غَرْوَ، قد يَغُصُّ بالماء شارِبُه، ويَقتُل الدّواء المستَشفِي به ، ويُؤتَى الحَذِرُ من مأمنه، وإنّي لأتجلّد فأقول: هل أنا إلاّ يد أدماها سِوارها، وجبين عضّه إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقلُه،.... والعتب محمود عواقبه....والنّكبة سحابة صيف عن قريب تَقَشَّعُ، وسيّدي إن أبطأ معذور.

فَإِنْ يَكُن الفِعْلُ الذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللاَّئِي سَرَرْنَ أُلُوفُ»[14].

ويقول مستعرضا الذّنوب التاريخية الّتي لو ارتكبها لكان فيها ما يسوّغ هذا السّجن المفروض عليه، وهذه المعاملة التي يلقاها من أوليائه: "وليت شعري ما الذّنب الذي أذنبت و لم يسعه العفو، ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل؟ أو مسيئا فأين الفضل... وما أراني إلاّ لو أُمرت بالسّجود لآدم فأبيت، وعكفت على العجل، واعتديت في السّبت... وعاهدت قريشا على ما في الصّحيفة.... وأنفت من إمارة أسامة ، وزعمت أنّ خلافة الصدّيق فلْتَةٌ**... لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يسمّى نكالا ، ويُدعى ولو على المجاز عقابا»[15].

فابن زيدون يخاطب أمير البلاد بهذه المعاني الّتي "مبعثها في نفس الكاتب الأسير أنه لا يدري أيّ ذنب ارتكب حتّى يعاقب عليه بالسَّجن »[16].

وهنا تجدر الإشارة إلى ما وقع فيه ابن زيدون من تكرار في المعاني، حيث نجد ذكرَه للذّنوب في قصيدة شعرية أخرى فهو لم يغيّر سوى القالب التعبيري، ويصوغ المعنى منوّعا في ذكر الخطايا والوقائع التاريخية، ومن ذلك قوله :

وَلَوْ أَنَّنِي وَاقَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَــةً لَمَا كَانَ بِدْعًا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي

فَلَمْ أَسْتَتِرْ حَرْبَ الفِجَارِ* وَلَمْ أُطِعْ مُسَيْلِمَةً إِذْ قَالَ إِنِّي مِنَ الرُّسْــلِ[17]

وفي القصيدة نفسها يقول :

أَفِي العَدْلِ إِنْ وَافَتْكَ تَتْرى رَسَائِلِي فَلَمْ تَتْرُكَنْ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيْ عَدْلِ؟

أُعِدّكَ لِلْجُلَّى ، وَآمُـــــلُ أَنْ أُرَى بِنُعْمَاكَ مَوْسومًا، وَمَا أَنَا بالغُفْــلِ[18]

وهي قصيدة أجمع النّقاد على أنها جميلة، ومن ذلك قول عبد المنعم خفاجي: "والقصيدة جميلة تقف مع روائع النّابغة في الاعتذار في مترلة واحدة»[19].

و قوله أيضا :

وَ مَازَالَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالمُنَى كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ المَحْــلِ*

أَإِنْ زَعَمَ الوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذْلِي[20]

يبيّن الشاعر أنّ ما يُنسب إليه ليس سوى وشاية زعمها الأفّاكون راجيا عطف سجّانه.

ويقول في رسالته: «فكيف ولا ذنْب إلاّ نميمة أهداها كاشح و نبأ جاء به فاسق؟ والله ما غششتك بعد النّصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية....وما لك لا تمنع منّي قبل أن أُفترس وتدركني ولمَّا أُمزّقَ...»[21].

فابن زيدون يبيّن شدّة ولائه لابن جهور، وأنّه دائما يكنّ له ذلك الاحترام والوقار الذي عُرف به، وكلّ ما هو فيه ليس سوى وشاية وأكاذيب جاء بها الفسّاق، ليحلف بالله أنّه لم يخنه و لم يخن ذلك العهد المعروف بينهما، كما يبيّن قدرة ابن جهور في تخليصه من محنته وأنّه يعتمد عليه في فكّ قيوده وتسريحه ممّا هو فيه.

ويظلّ ابن زيدون يستعطف أبا الحزم جهورا كي يردّ إليه حريته، في رسالة «تكتظّ بالأمثال وبالأحداث التاريخية في عهود الرسل وفي الإسلام، كما تكتظّ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حلّ كثير منها، ومع رهافة الشّعور ودقّة الحسّ وصفاء الذّوق في انتخاب ذلك كلّه، وفي اختيار الألفاظ والتّنسيق بينها تنسيقا بديعا»[22].

ولا يمكن الإحاطة بكلّ مضامين الرّسالة ، لطولها و تنوّع معانيها، وجمال أساليبها، فهي كما قال علي بن محمد « قصيدة شعر في قالب رسالة نثرية، لأن نفس ابن زيدون هي قبل كلّ شيء نفس شاعر...»[23]، والدّليل على ذلك أنّ الأديب لم يستطع كبح جماح الرّوح الشّاعرة فيه، فأطلق لها العنان في الأخير، وختم الرّسالة بقصيدة نظم فيها ما نثره في الرّسالة من المعاني.

وقد صرّح في ذلك بأنه يزفّ إليه عروسا مجلوّة في أثوابها، ويظهر ذلك في قوله: «ولمّا توالت غرر هذا النّثر واتّسقت درره، فهزّ عِطف غُلَوَائِهِ*، وجرَّ ذيل خُيَلاَئِهِ، عارضه بالنّظم مباهيّا، بل كابده مداهيا، حين أشفق أن يستعطفك استعطافه، وتميل بنفسك ألطافه، فاستحسن العائدة منه، واعتدّ بالفائدة له، فمازال يستكدّ الذّهن العليل، والخاطر الكليل ، حتّى زفّ إليك عروسا مجلوّة في أثوابها ، منصوصة بحليها وملابسها»[24]. وهي:

الهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
سَرَّنَا عَيشُنَا الرَّقِيقُ الحَوَاشِي لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيــــــمِ[25]

ويبدو أنّ ابن زيدون يتحسّر على الأيام التي عاشها، لكنّها لم تدم. كما أنّه يريد من خلالها تذكير ابن جهور بالمجالس التي جمعتهما، لعلّه يتذكّر فيلين قلبه، وتميل عواطفه، ويعفو عنه، إلى أن يقول :

وَوِدَادٌ يُغَيِّرُ الدّهْرَ ماشَــــــا ءَ وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْــدِ الكَرِيمِ
فَهُوَ رَيْحَانَةُ الجَلِيسِ وَلاَ فَخْــ رَ وَمِنْهُ مِزَاجُ كَأْسِ النَّــدِيمِ
لَمْ تَزَلْ مُغْضِيًّا عَلَى هَفْوَةِ الجَا نِي مُصِيخًا إِلَى اعتِذَارِ الكريم
وَمَتَى يَبْدَإِ* الصَّنِيعَــةَ يُولِغْــ كَ *تَمَامُ الخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ[26]

والقصيدة تكوّنت من أربعة وثلاثين بيتا جرى فيها مجرى ما جاء به في الرّسالة من حيث المعاني، من المدح ثمّ التّهويل لما أصابه من عقاب، إلى الاستعطاف والتّصاغر حيث يقول بعد القصيدة مباشرة:

«هاكها – أعزّك الله– يبسطها الأمل، ويقبضها الخجل، لها ذنْب التّقصير، وحرمة الإخلاص فهب ذنْبا لحرمة، واشفع نعمة بنعمة، ليتأتّى لك الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل طرقاته إن شاء الله تعالى»[27].

فنفس ابن زيدون كانت أميل إلى الحرية منها إلى الشّعر أو النّثر، و لم يكن كلاهما سوى وسيلة يستشفع بها ابن جهور و يستميل عطفه، فهو حائر أيّهما أقوى وأطوع في تبليغ مضمون رسالته، فتراه يناوب بين الشّعر والنّثر رجاءَ أن يكون في أحدهما مفتاح النّجاة من سجنه*.

ظلّ ابن زيدون يستعطف سجّانه دونما يأس آملا في خلاصه من محنته، وكانت رسالته من أروع ما حفل به الأدب العربي، وهذا بإجماع النقّاد، "ولكثرة ما في الرّسالة من أمثال العرب و وقائع التّاريخ والأشعار، احتاجت إلى الشّرح لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، ممّا يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهي آية بديعة من آيات النّثر الأندلسي"[28].

والملاحظ في الرّسالة أنه مزج فيها بين النثر و الشّعر، لأنّ الشّعر" يؤتى به لمنع السآمة عن النّفس، وهذا من خصائص الأدب العربيّ، ولعلّ الأقرب إلى الصّواب أنّ العقلية العربيّة هي عقلية شعر"[29]، وأنّ الذوق العربي لا يكاد يقوى على مفارقته، فلمّا تطورت أغراض النّثر لم يقو أصحابه على هجر الشّعر فأوجدوا أساليب متنوّعة لاستجلابه.

وعليه فإنّ هذه الأمثلة، لا تمثّل سوى زفرات من أفواه شعراء كثر ذاقوا مرارة السّجن واستعطفوا سجّانيهم بقصائد طوال ، وما ذكرناه ليس إلاّ الشّيء اليسير ممّا قيل في هذا الغرض، الذي لم يسلم أيّ شاعر سجن من طرقه، لأنّه المنفذ الوحيد للنّجاة ممّا يكون فيه الشّاعر أو الأديب.

وعلى الرّغم ممّا صدر عن ابن زيدون وغيره من الأدباء – من ألفاظ دالّة على "صدق تجربة أصحابها في التّعبير عن معاناتهم الذاتية إذ كلّ لفظة من هذه الألفاظ لها ظلال موحية بالأسى والحزن»[30]– فإنّها لم ترْقَ بهم إلى ما أريد بها من استعادة للحرية أو استمالة قلب الحاكم أو غيره، بل انقسمت شطرين: فمنهم من استطاع بأشعاره ورسائله أن ينال حظوة عند السجّان، واستعاد حريته ومكانته، ومنهم من قوبل بالإنكار، و لم يزده استعطافه إلاّ تعاسة، لأنّه علّق عليه كلّ آماله، فيموت مع أحزانه وآلامه في السّجن، أو يجد طريقة غير الاستعطاف تمكّنه الخلاصَ من السّجن كما فعل بعض المسجونين.

لكنّ ذلك لم يمنعهم من التطلّع بقصائدهم و رسائلهم للحرية، لتكون هذه الرّسائل وسيلة لتحقيق رغائبهم ونيل شفاعة من خوطب بها، "وتتّسم هذه الرّسائل في الجملة بسمة الرقّة، والتذلّل وبسط الوداد، واعتماد السّابقة، والتنويه بالمآثة، وإعظام المُخاطب والإغراق في مدحه لهزّ أريحته، كما تتّصف بالإشادة والتنويه بحاملها والثّناء على خلائقه، مع الإعراب عن طلبته في معرض يحفظ حياءه وهيبته"[31].

وبالرّغم من هذه المعاناة التي وقفت عائقا في وجه المحبوسين، فقد وُصِف هذا المكان وصفا دقيقا، ووصلتنا معاناة أصحابه في أرقّ المعاني، كون غرض الاستعطاف أصدق من غيره ، فقد تجد تكلّفا في بعض الأغراض الأخرى، كونها تبتعد كثيرا عن الخطاب المباشر للسجّان أو الحاكم أو من بيده عقدة الحلّ لهذه الأزمة، فإن وصف فقد يتوسّع في وصفه للأجواء البعيدة عن السّجن، وإن حنّ فإنه يحنّ إلى أماكن وأشخاص بعيدا عن السّجن إلى غير ذلك من الأغراض.

ويمكن القول أخيرا إنّ الاستعطاف برز ناتئا في أدب السّجون نثرا وشعرا، وكان من الموضوعات البارزة، للأهمية الوظيفية التي يؤدّيها، حيث أدّى أحيانا إلى إطلاق سراح المستعطِف، كما برز وصف المأساة لأهميته النفسية لدى الشّاعر وتعبيره عنها، وبيان أثر السّجون في تحطيم نفوس السّجناء وجرح كبريائهم.

هناك علاقة بين الاستعطاف والتذلّل المهين، حيث كان التذلّل يزداد كلّما طالت محنة الشّعراء، فقد حوت الأشعار التي نظموها في فترة متأخّرة ما يدلّ على تذلّلهم، أكثر من تلك الأشعار التي نظموها في فترة متقدّمة من محنهم، والتذلّل وجد في أشعار المستعطِفين كافّة، إلاّ أنّه كان يتفاوت من شاعر لآخر، ومن الشّعراء من لم يستعطف بأسلوب مباشر، ولكنّه

خاطب سجّانه بأسماء أخرى وكان أغلب المستعطفين يعاتبون الدّهر ويلومونه، ويشكونه أحوالهم، وقد أشار الدّارسون إلى أنّ هذا الدّهر الظّالم هو السجّان.

لم يكن أدب السّجون عامة والاستعطاف خاصة مبتور الأوصال، بل كان امتدادا للأدب العربي، ولكنّ بيئته كانت مختلفة، واستطاع أدباء السّجون إمدادنا بروائع تعبيرية عن أحاسيسهم فكانت أبلغ ما عرفه الإنسان وهو تحت وطأة السّجن والضّغوط النّفسية، كما أنّهم لم يكونوا منقطعين فكريا وأدبيا عن الخارج، حيث إن بعضهم كان يتّصل بالأدباء عن طريق الرّسائل، ومنهم من كان تلامذته يزورونه في سجنه ويقرؤون عليه المؤلّفات.

الإحالات و الهوامش:

1: المكان في الشعر الأندلسي، د. محمد عويد محمد ساير الطربولي، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 1425هـ، 2005م:107.

2: تجربة السّجن في الشّعر الأندلسي، رشا عبد الله الخطيب، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1999م: 64.

3: الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق ، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت: 230.

4: النّثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، "مضامينه وأشكاله"، علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990م:274/1.

5: نفسه: 274/1.

6: تجربة السّجن في الشّعر الأندلسي، رشا عبد الله الخطيب : 65.

*1 أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون، ذو الأدب البارع والشّعر الرائع..... وزر لابن جهور ثمّ فسد ما بينهما فحبسه ابن جهور، فر من محبسه إلى إشبيلية فاستخلصه ابن عباد لنفسه، توفي سنة 463 هـ بإشبيلية. يُنظر أخباره في: المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، تحقيق : محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الثالث، د.ت:162. وجذوة المقتبس للحميدي: 205/1، وبغية الملتمس للضبي: 187.186 .

*2 أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، ولد عام 364هـ، وَلِيَ الوزارة أيام بني عامر إلى أن انقرضت دولتهم، ولمّا خُلع هشام المعتدّ عام 422ه، استقل أبو الحزم بقرطبة. توفي سنة 435هـ.ينظر: مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلَحِ أهل الأندلس، لأبي نصر الفتح بن خاقان، دراسة و تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ 1983م:166.153.

*السّرو: المروءة و الشرف. (لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت ، ط1: مادة:سرا).

*الغَمْرُ: رجل غَمْرُ الرِّداء وغَمْرُ الخُلُقِ أَي واسع الخُلُق كثير المعروف سخيّ. (لسان العرب لابن منظور، مادة:غمر).

7: ديوان ابن زيدون، شرح د. عمر فاروق الطبّاع، دار القلم، د.ط، د.ت: 217.

8: تجربة السّجن في الشعر لأندلسي. رشا الخطيب:77.

9: ينظر: ديوان ابن زيدون:102- 103/ والذخيرة لابن بسام:1/1 .348

10: الأدب العربي في الأندلس. د عبد العزيز عتيق:263.

11: ديوان ابن زيدون:104.

12: ينظر:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة بيروت، ط1. 1399هـ.1989م. 1/1: 340، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: لخليل بن أيبك الصّفدي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.د.ط.1969م:22.

*الرسالة الجديّة: وهي الرسالة التي كتبها ابن زيدون من محبسه إلى ابن جهور، وكانت نثرا تخلله الشعر. سميت بالجدية تمييزا لها من "الرّسالة الهزلية" التي أنشأها في التهكّم بابن عبدوس، غريمه في ولاّدة.

13: ينظر:الذخيرة لابن بسام:1/1 340. وتمام المتون للصّفدي :23.

14: ينظر:الذخيرة لابن بسام:1/1 340.

* الفَلْتة: الأَمر يقع من غير إِحكام وفي حديث عمر أَنَّ بيعة أَبي بكر كانت فَلْتةً وَقى اللهُ شَرَّها، قال ابن سيده قال أَبو عبيد: أَراد فجأَة. وكانت كذلك لأَنها لم يُنْتَظَرْ بها العوامُّ، إِنما ابْتَدَرَها أَكابرُ أَصحاب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين وعامّة الأَنصار.(لسان العرب لابن منظور، مادة:فلت).

15: ينظر:الذخيرة لابن بسام:1/1: 341.

16: النثر الأدبي الأندلسي، علي بن محمد: 275/1.

* الفِجارُ يوم من أَيام العرب وهي أَربعة أَفْجِرَةٍ كانت بين قريش ومَن معها من كِنانَةَ وبين قَيْس عَيْلان في الجاهلية وكانت الدَّبْرة على قيس وإِنما سَمَّتْ قريش هذه الحرب فِجاراً لأَنها كانت في الأَشهر الحرم فلما قاتلوا فيها قالوا قد فَجَرْنا فسميت فِجاراً. ينظر: لسان العرب: مادة فجر.

17: ديوان ابن زيدون : 189.

18: نفسه: 188.

19: الأدب الأندلسي، التطور والتّجديد، عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط1 ، 1412هـ/1992م: 492.

* المحل:المَحْل الجدبُ، وهو انقطاع المطر ويُبْسُ الأَرض من الكَلإِ غيره.(لسان العرب لابن منظور، مادّة:محل).

20: ديوان ابن زيدون : 188.

21: الذخيرة لابن بسام: 1/1 : 341.

22: عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، د.ط ، 1989: 471.

23: النثر الأدبي الأندلسي، علي بن محمد: 276/1.

* غُلَوَائِهِ: سرعته و أوّله. (لسان العرب لابن منظور،مادة:غلا).

24: تمام المتون للصفدي: 27.

25: ديوان ابن زيدون:216.

* يبدإ: وردت في تمام المتون: نبدإ.

* يولغك: وردت تمام المتون: يوليك.

26: ينظر : ديوان ابن زيدون: من 216 إلى 218. وتمام المتون للصفدي:27. 28. 29.

27: ينظر:الذخيرة لابن بسام:1/1 .342 وتمام المتون للصفدي :29.

* الذي سجنه هو قاضي قرطبة: عبد الله بن أحمد بن عبد الملك بن هشام، أبو محمد بن المكوي الذي تولّى قضاءها من 432 إلى 435هـ . تنظر سيرته في: المغرب لابن سعيد: 160/1.

28: عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف: 471.

29: ينظر:النثر الأدبي الأندلسي، علي بن محمد: 676/2.

30: شعر السّجن في الأندلس: مصطفى الغديري، دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1985م:369.

31: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب. محمد مسعود جبران. دار المدار الإسلامي. ط1. 2004م: 219/1.